

والرواية . وإلى جانب ذلك هو شاعر مرتجل ، « وشعره في طريقة الزهد كثير » . وفوق هذا كله ، يقول الذين ترجموا له : إنه « إمام في الزهد ، عارف محقق » ، ويستهدون بولايته وفضائله المختارة ، وكافأه الله عليها بجائله وكراماته .

وكانت مدينة المرية^(٥) في ذلك العصر البؤرة الأولى للصوفية والزهاد في الأندلس ، ولم تتلاش المبادئ الصوفية لمذهب ابن مسرة ، وظلت قائمة دينيا خلال القرون التي تلت وفاة مؤسسه في عدة مراكز ثقافية في جنوب إسبانيا . وفي قرطبة بخاصة ، وفي بجانة أيضا ، وهي قرية صغيرة قرب المرية ، على الشاطئ الأيمن من النهر الذي يحمل اسم المدينة . وظهر في المرية ، قبل ابن العريف بسنوات ، زاهد آخر ، هو محمد بن عيسى . ونال شهرة واسعة ، وكان يبشر في الشوارع والميادين بفكرة صوفية قوامها الوحدة الصوفية بين الله والروح ، في دعوة صريحة إلى تأليه الكون . ومع بداية القرن السادس الهجري ، وفي أوج حكم المرابطين ، أصبحت المرية العاصمة الروحية لكل الصوفية الإسبان ، ومنها خرجت الصرخة الأولى والوحيدة في احتجاج جماعي على إدانة الغزالي وإحراق كتبه . وقد حرّمها فقهاء قرطبة التقليديين ، واعتبروها مؤلفات زناديقة ، وكانت هذه الكتب قد دخلت إسبانيا في حياة مؤلفها ، غير أنها أسلمت إلى النيران بقرار رسمي من سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين . ولكن علماء الكلام في المرية بزعامة البرجي أصدروا فتوى أدانوا فيها موقف ابن حنبلين قاضي قرطبة ، لأنه أمر بإحراق كتب الغزالي . ولم يحدث أن بلغ احتجاج الصوفية من أتباع الغزالي وأنصاره ، في أية مدينة أخرى ، القدر من الجراءة الذي أظهره علماء المرية ، لا في مراکش ولا فاس . ولا قلعة بني حماد^(٦) ، واكتفى صوفية هذه المدن بالاحتجاج فرادى ، وجماعة همسا في مجالسهم الخاصة .

(٥) انظر : أسين بلاثيوس : ابن مسرة ومنهجه ، مدريد ١٩١٤ ، ص ١٠٨ ، وص ٢٤٢ في المجلد الأول من أعماله المختارة ، مدريد ١٩٤٦ . وجولد تسيهر : ابن البرجان ، في ZDMG المجلد ٦٨ ، عام ١٩١٤ ، ص ٥٤٤ .
(٦) قلعة بني حماد في الجزائر المعاصرة ، وكانت عاصمة الدولة الحادية في العصور الوسطى ، وفيها حرر ابن خلدون تاريخه الشهير .